

## الحرية والقوت أهم أهداف البحوث الاجتماعية في العصر الحديث للأستاذ محمد لطفى جمعه

أما الحرية فقد خبط الناس وتبلبلوا في إدراك معانيها، فتوهم معظم الجهال أو المتسرعين بالأحكام المبتسرة والسابقة لأوانها، أن الحرية تعنى تمكين صاحبها من أداء أى عمل يقوم بخاطره أو يدور بخده . وهذا الوهم الذى يسود الشرق يعود إلى إفراط الحكام فى قديم الزمان بل إلى عهد قريب فى الاستبداد بأفراد الأمة، وتطرف الحكام فى تطبيق السلطان الشرعى وقوة الدولة فى منافعهم الذاتية مفضين عن مصلحة الرعية . وقد سرت هذه الخصلة الذميمة من الخليفة إلى السلطان إلى رئيس الشرطة حتى وصلت إلى المأمور والعمدة وشيخ البلد والأستاذ ( الذى كان يجيب الضرائب ) ثم إلى الفقير وعسكى الداورية ! . . فحدث فى نفوس المحكومين رد الفعل الذى يشبه نتيجة الكبت والإرهاق فى نفوس الأطفال، وكفر الأفراد بالسلطة كما يكفر الناثر بالقانون ويخرج عليه، وهو ما وقع فى تاريخ سائر الثورات فى بغداد وباريس والقاهرة ومدريد وروما وأثينا والقسطنطينية، ونشأ عن المفالة فى ظلم الحاكم مفالة من جهة المحكوم فى طلب الحرية، والتوسع فى فهم معناها ومصرها .

فاذا طالت فترة النزاع بين الحاكم المستبد والمحكوم المظلوم . حيلة أجيال كما حدث فى فرنسا وتركيا، فإن الأولاد يولدون وهم يبغضون الاستبداد ويقاومونه بكل قواهم . وقد تصل بهم هذه الحالة إلى الاستشهاد والتضحية فى سبيل الخلاص والتحرر لأنه وقرئ أذهانهم وجرى مع دعائهم فى عروقتهم أن سلطة الحاكم لا حد لها من الوجهتين الشرعية والوصفية، وأن المحكوم لا يمكنه أن يعترض الحاكم فيرغمه على الحرب، ويستخره بغير مقابل، ويحصل منه الضرائب والمكوس، فلا أمل له إذن فى الحرية إلا بزوال هذا النظام الجائر فى نظرهم .

ولكن هذا الفهم للحرية كان فهما خياليا وإن هذا النوع من الحرية الوهمية لا يوجد إلا عند دعاة الفوضى قبل أن يؤسسوا دولة مسئولة ( كما كان شأن ثوار روسيا قبل سنة ١٩١٧ ) أو عند فلاسفة النظريات الاجتماعية التاريخيه مثل ديدرو ومابل، Diderot، Mably وجان چاك روسو<sup>(١)</sup> فقد زعم هؤلاء الثلاثة ولا سيما الأخير منهم أن الناس قبل

(١) . . . . . وقد سبقه حبه أفلاطون فى كتاب " الجمهورية " .

إنشاء حياة المجتمع كانوا في "عصر ذهبي" age d'or متمتعين بحرية غير محدودة في الأحكام والعيش والاقتصاد، إلى أن أجمعوا فيما بينهم على التعاقد مع من اختاروهم حاكين على التنزل عن بعض حريتهم لقاء تعهد الحاكم والترامه بالدفاع عنهم في داخل المجتمع وخارجه . ولكن هذا التفكير لم يكن إلا وليد الضرورة وتعبيرا عن ميخبط المحكوم المظلوم على الحاكم الظالم . أما الفرضيون فقد كانوا يقاومون الحاكم المستبد عن بيعة وعلم سابق ولا يتمحلون الأعذار، ولا ينتحلون التعاليل ، وما زالوا دائمين في معاداتهم حتى صار لهم من القوة ما تمكنوا به من إقصاء المستبد ، وتأسيس عرش للسواة .

ومعظم الأضرار التي أصابت الجماعات والأفراد راجعة إلى الوهم الذي كان سائدا وهو وجود الحرية المطلقة التي لا تكون حتى في عالم الحيوان .

والنصاية التي وصل إليها الاجتماعيون أن ينال الفرد من الحرية في أقواله وأفعاله بحيث لا يسحقون الآخرين. ووصات هذه النظرية إلى منتهىها حتى وضع لها رجال الثورة الفرنسية تعريفا عاما في "إعلان حقوق الإنسان والمواطن" فقالوا "الحرية خلقة يستطيع صاحبها أن يقوم بكل ما يريد ، وحدته في ذلك ضرر الغير" وقد أصاب الفرنسيون عند اشتغالهم الإنسان (homme) والمواطن (citoyen) يقصدون بذلك إلى أن الحرية المباحة لا تناقض الحكم المنصف ، ولا يمكن تحيلها بدون نظام حكم عادل يؤيدها ويغذيها ويدافع عنها ويكون القائم على هذا الحكم بمثابة القاضى بين المتنازعين فيبين حدود الحرية اللازمة لكل فرد .

وقد شاعت الأقدار والطبيعة أن المجتمع لا يزدهى ولا يزدهر ولا يسفر عن مظاهر قوته وسعادته كما تنفتح الزهرة عن أكامها إلا في ظل الحرية . فكانت الحروب دائما معطلة لنصيب وافرو حائل قوى دون انتشار ذلك الظل الوارف لأن الحرب بطبيعتها بمثابة اندس الحاد الذي يصيب كيان المجتمع وقد يصير مزنا إذا طال أمده . فيعتدى الحاكم مكها أو مدفوعا بمصلحة المجتمع على كثير من مظاهر الحرية ، وليس هذا بالتهدى استبدادا ولا ظلما ولكنه نوع من الوقاية التي تتخذ لون التشريع الاستثنائي، كما يفعل الطبيب والمرض في علاج العليل . ولكن الفرد الذي فطر على عيشة السلم والاستمتاع بحقوقه في حدود معينة قد يختلط عليه الأمر ويلحقه الضرر والفيظ، وقد كان من أهم مظاهر هذا السخط في البلاد المتمدنة تقييد حريات القول والكتابة والاجتماع وخلق الأنوار وتحديد الأقوات والأرزاق بالبطاقات والتعرض للدينين في بعض الأعمال المريبة في ظاهرها كحرية التنقل والاتجار ببعض المواد وعدم المغالاة في تسعير البضاعة والخدمن أرباح الأفراد للصالح العام وغيره وغيره. ولما كانت الحكومات هي المسؤولة عن المحافظة على حرية المواطنين بما تضمنه من التشريع الوقفي

أو الدائم فالأشخاص الميالون للاستبداد بفطرتهم يتخذون من فترات الحروب وسيلة ومثابة  
للعبث بحرية الأفراد .

ولم يكن تضيق الحرية الأمر الوحيد الذى أعقبته الحروب ، بل أعقبت أيضا ضيقا  
اقتصاديا يكاد يكون ملازما لطبيعتها فى كل زمان ومكان . وأهم أنواع الضيق ما كان منصبا  
على القوت ، فان الفلاح المصرى يأكل خبز الذرة من غير إدام أو يادمه بقليل من الفول  
والبصل والجن القديم أو سائل الجبن ( المش ) ونادر ا ما يأكل بيضة أو يشرب لبنا أو يخبز  
فطيرة بالسمن أو الزيت وفى الأندلس يأكل الحما . ولا يتكلف هذا القوت الضرورى أكثر  
من قرش أو قرشين . وقد يكون صاحب الطين ومالك الأرض من الأغنياء المفرطين  
فى الطعام فيتذوق فى كل يوم ألوانا من اللحم والسمن والطير والفاكهة والخضر المجلوب  
فى العلب أو الطازج الغالى كعش الغراب أو كشك الماظ وقد لا تقل نفقة طعامه فى اليوم  
الواحد عن جنيهه أو جنيهين ، هذا غير ما يتفقه فى الولايم والمآدب وبيعه على موائد الفهار  
والشراب المحرم . وقد كان الفلاح قانعا بما قدم له على الطريقة الشرقية من وجوب الرضى  
بما يعمر من الرزق ، مفترضا أن هذه القناعة أو هذا الرضى جزء من المعتقد الدينى ، ولكن  
الحرب غيرت الأحوال وبدلتها ، دون أن يكون للفلاح دخل فى التحويل والتبديل ، فان  
عيش الذرة نفسه أصبح بعيد المنال بعد أن اختفى القمح أو كاد يختفى من الحقول والأسواق

بيد أن الفلاح وإن جاع نانه قانع ولكن الاجتماعى ينظر الى المسألة من وجهة أخرى  
وهى وجهة الانتاج فانه بينما كان ينفق القرش والقرشين على قوته كان منتصب القامة شديد  
العضل ، يحمل طول النهار فى حرارة الشمس ولا يشكو تعباً ويرقد الليل كله ولا يشكو أرقا  
حتى وصفه بيير لوتي فى كتابه عن مصر " موت أنس الوجود la mort de Philae " بأنه  
"الرجل البرزى" . ولكن منذ شكا الفلاح الجوع قلت قدرته على العمل والانتاج ،  
واصبح معرضا للأمراض والعجز عن تموين البلاد بعمله المستمر كعادته ، فان الطعام مهما  
قل أو تنوع عماد الصحة البدنية وأصل القوى الجسدية والمعنوية ، وليس الغالى منه أصلح  
من الرخيص للقيام بالأغراض التى يؤكل لأجلها .

وهذه حكمة ربانية أرادت العناية الإلهية فان الطعام الذى يأكله الفقير ( لأنه فى تناول  
يده ) أغذى له وأجدى عليه وأنفع وأشهى لديه من الذى يدمسه الغنى فى جوفه . وكما نقول  
هذا القول اعتباطا ونتمشددق به تعزية وتسلية على حد قول الثعلب الذى اشتهى عنقود العنب  
فلما عجز عن مطاوئته ذمه زاعما أنه حصرم غير ناضج ، الى أن ثبت بالبحث العلمى أن طعام  
الفقير الرخيص كاف لتغذية جسم الانسان مثل طعام الغنى الثمين ؛ بل هو أفيد منه فى الخبز والفاكهة  
الرخيصة كالتوت والجيز والبقول كالفول والعدس والحمص واللوبيا والخضر الزهيدة الأثمان

كالفجل والبصل الأخضر والحمضيات والسريس وفي البيض واللبن ما يفوق الغذائية باللحوم والأسماك والطيور الدسمة ، ويجعل طاعمها بآمن من الأمراض التي تصيب صاحب التغذية الغالية كالنقرس وداء السكر وأمراض المفاصل وداء الملوك والتخمة وعسر البول والامساك الخ .

وقد ثبت بالبحث والتجربة أن لليسر والرخاء والنجاة من الضيق الاقتصادي سبيلين معبدين وهما زيادة الدخل في الفقة وتحصل زيادة الدخل لأهل المملكة المصرية بأن يزيدوا حاصلاتهم الزراعية ويفرغوا ما في وسعهم حتى تقوم بما هم في مسيس الحاجة اليه من طعام وشراب وكساء وأن يعملوا على بيع ما يفيض عن حاجتهم بأقل ثمن ممكن ( وهذا ما لا يتيسر بتاتا في أزمته الحرب ، كما وقع في تقدير أسعار القطن المصري في الحرب الراهنة ) ويقوم الاقتصاد في النفقات بالاكْتفاء بما يلزم وعدم الاسراف في شيء ولا سيما ، اذا كان مما يستورد من الخارج ، وقد أدت طوارئ الحرب الراهنة الى ما يشبه تعطيل البضائع المطلوبة فاقفل باب كبير من النفقات التي كانت محتمة لو أن المواصلات البحرية والبرية بقيت على حالها في وقت السلم ، ولو أن إيراد الجمارك معرض للعجز إلا أنه مرجوح بما يعود على الأمة من الادخار والصناعة . والحاجة الملحة تجبر أهل المجتمع على تقليل نفقاتهم . وإن لم يكن راعى الغنم أو عامل المبانى أسعد من عمرو باشا أو بكر بك أو زيد أفندي ، فإنه قد لا يقل عنه راحة بال وصحة بدن إن استقام ووقع في هذه الظروف القاسية ، ولا سيما اذا فتحت الحكومة عينها وأذنيها ، واتخذت عصاها لتضرب بها على يد التاجر الشره واللص المشجع للفلاء ، والنصح الى ليف من الأغنياء البطرانين الذين لا يكتفى الواحد منهم بمخمة آلاف أو ستة آلاف جنيه ينفقها في العام الواحد ، بينما ألوف من اخوانهم في الانسانية يحتاجون الى الضروريات .

وقد ثبت بلجميع الباحثين في الاقتصاد والاجتماع أن نفقات الحاجيات غير كثيرة وانما الكثير نفقات الكماليات فاذا اضطر الانسان الى الاقتصاد في كالياته ، اقتصد كثيرا .

وهكذا نرى نظريات علم الاجتماع الحديثة لا تأنف أن تتناول أهم ضروريات الانسان بجانب أسس مبادئه . وأنه هو المخلوق الوحيد الذي يؤسس العمران والحضارة ثم يقوض أركانها في سبيل الحرية والقوت ثم يخوض غمار المعارك الدامية لاغراض قد تخفى أو تبهم على الأذهان في أول أمرها ثم يستبين المرء فوائدها العميمة بعد أن تضع الحروب الطاحنة أوزارها . فيجنى ثمار السلم والحرب ويعمل دأبها على سعادة الجنس غير ناظر الى مصالح الأفراد الموقوتة ما